أنا والصحراء ...

للأستاذ راجي الراعي

وقفت أمس في قلب الصحراء أتحدث إليها ، وإليك ما دار بيننا :

— من أنت أيتها الصحراء ؟

— أنا الجبال منبطحة وقد صرعها الأقدار ...

— ألست شيئاً آخر ؟

— أنا بحر ماتت أمواجه وتقمصت رمالا ...

— كيف أنت والآن ؟

— أرى في نجومه رمالي ويرى في شمسه ..

— والصبقرية ؟

— أنا أذنها التي تلتقط أصواتها التي لا يلتقطها الناس ..

— والمرأة والحب ؟

— أنا ليلى ومجنونها .. وجميل وبثينة .. وعروة وعفراء .. والبحتري وعَلْوة .. وابن أبي ربيعة والثريا ...

— والجمل ؟

— هو رفيق القديم ، أحبه ويحبني ويسابق صبره صبري ..

— على أي شيء تصبرين ؟

— أصبر على لهيب القدر الذي جاءني بهذه الأرحام المضطرمة .. أنا في رمالي نار تأكل نفسها ! ...

— أقاسية أنت أيتها الصحراء أم رحيمة ؟

— أنا قاسية لأضل الذين يضلون الناس ، ورحيمة إذ رضيت بأن أكون الصحراء لتبقى لك الروضة تستلذها ، وليبقى لك الماء تستطيبه ... ألا ترى أنه لولا شبح الليل لم يكن لشعاع النور معناه ... إن القدر أقامني رحمة بك ... لقد بسطني لتطوي مراحلك في الحياة طروباً ...

— كيف أنت والشعر ؟

— إن رمالي جاءت (بهجوره) . لقد عرف الشعر نفسه في مجاهل ... أنا امرؤ القيس والأعشى وزهير والنابغة والأخطل وبشار وأبو نواس وعمر بن أبي ربيعة والمتنبي والبحتري وأبو تمام والمعري فيلسوف الشعراء وشاعر الشعر .. أنا ألف فبقري في ألف جنة خالدة ...

— هذه الرمال فيك ، ما هي ؟

— هي حبات قلبي ...

— لماذا تحملين أيتها الصحراء ؟

— إذا شققت قلبي تنكشف لك عن ينبوع تظله شجرة ..

— أتريدين أن تكوني الغابة الغناء ؟

— ربك يا شاعري أرحني من وطأتي .. إجعلني في خيالك أشجاراً خضراء لأستريح فيك ساعة من الزمن .. إرحمني يا ابن الخيال فأنا أرضي قاحلة موحشة ... غذني بمائك وارفعني إلى سمائك .. دعني أتنشق هواء الجبال وعبير الرياض .. أقني في مملكتك قمة لجبل أو فنا لينبوع أو نهراً في جنة ..

إرحمني أيها الشاعر واستر عُريي .. إرحمني .. أنا امرأة تحلم بالينابيع والظلال .. لقد تعبت من رمالي .. أنا قتيلة الشمس التي لا ترحمني .. أنا ظمآى ظمآى افتش عمن يبرد لظاي ..

— ظمآى ؟ .. ولكنك سقيت التاريخ كؤوساً من الشعر والخمر قل أن مر على شفتيه مثلها ... إنني أخاف إذا ما تخليت عن رمالك للماء والشجر أن تضيعي شاعرك العظيم وتأوك الخالد وروحانيتك المضطرمة وأحلامك الكبار وإلهامك البديع ..

إن ظمأك هو الذي سقى الناس ، وتأوك هي التي جاءت بأجراً وثبة دهش لها التاريخ .. إن سرك في الرمال فلم تفتشين عن الظلال ؟ أنت تائهة أيتها الصحراء كالحالمين التائهين فيك ... إذا كانت شمس تتلك فالقمر الذي يتعرك بنوره قد أحياك ... وإذا كنت بعدت عن ضجيج الناس فقد اقتربت من الخالق ... أنت للحالم فلا تظلميه .. أنت للأحرار المستقلين فلا تقيدي نفسك بحجر أو شجر .. أنت أرحامك حر ولكنك امرأة ولود ، وإن في رياحك روحاً وفي ظلالك هدى بتير السبيل .. ليس الدواء كله في الماء ، وليست الثمرة كلها في شجرة ، فإن في وهج وحيك ألف يلسم لألف جريح ، وفي خصب خيالك من الأشجار ما تضيق عنه ألف غابة كثيفة .. أنت للملهمين فلا تستري أقمارك بالأوراق ، وللروحانيين فلا تحجبي جمال الأرواح بما يقف بينها وبين أهدافها .. لا تلبسي الثوب مهما يكن لونه ونسيجه .. أنت امرأة عريانة ولكنها في عريها تكسو الشعراء والحالمين .

راجي الراعي